Hespéris-Tamuda LX (1) (2025): 97-124

Ṣaḥīfat al-Madīna between Traditional Narrators and Modern Scholars

Ṣaḥīfat al-Madīna bayna al-ruwāt al-qudāmā wa-l-bāḥithīn al-muḥdathīn

صحيفة المدينة بين الرّواة القدامى والباحثين المحدثين

حياة عمامو

أستاذة التاريخ الإسلامي الوسيط، جامعة تونس

Abstract: The *Ṣaḥīfat* al-Madīna did not benefit, like all other official documents written during the early period of Islam – such as the Qur'an, letters, or peace treaties – from being transmitted to contemporary researchers with their original physical mediums on which they were first written. All these documents were reproduced in narrative chronicles, the oldest of which date back to the 2nd/8th century.

Unlike the other documents, all scholars have agreed to attribute the *Ṣaḥīfa* of Medina to the period following the Prophet's migration to Yathrib. However, they have not been able to determine the exact date of its issuance.

Several Arab-Islamic chronicles either omitted or ignored the *Ṣaḥīfa* of Medina. Nevertheless, contemporary studies in the humanities and social sciences have given great importance to this *Ṣaḥīfa* since the late 19th century and continuing to the present day.

How can we explain this discrepancy in the level of interest given to the *Ṣaḥīfa* between early and modern scholars? What is the significance of its content and the date of the issuance of its articles? Does the content of this document aim to overcome past conflicts among the inhabitants of Yathrib, or could it serve them for the future within the framework of the new religion?

Keywords: *Ṣaḥīfa*, Yathrib, Medina, *Umma*, Jews, Believers, Muslims, Ransom.

مقدّمة

لم تصل صحيفة المدينة، مثلها مثل كلّ الوثائق الرّسميّة المكتوبة في حقبة الإسلام المبكر من مصاحف أو صحف أو رسائل أو عهود صلح أو عقود، إلى الباحثين المعاصرين بمحملها الأصلي الذي كتبت عليه لأوّل مرّة، بل أعيد إنتاجها في مصادر إخباريّة سرديّة يعود أقدمها إلى النّصف الثاني من القرن الثاني للهجرة. وخلافا لبقيّة الوثائق الرّسميّة، أجمع جلّ الدّارسين على نسبة هذه الصحيفة إلى عهد النّبوّة بعد الهجرة، رغم اختلافهم في تحديد زمن دقيق لصدورها.

وما يثير الانتباه فيما يتعلّق بهذه الصّحيفة هو أنّ المؤرّخين القدامى لم يولوها الكثير من الأهميّة، فمنهم من تغاضى تماما عن ذكرها، ومنهم من اكتفى بالإشارة إلى أنّ النّبيّ أمكنه بفضلها معالجة مشكلة ''ديّة الدّم أو المعاقل'' كما ورد في نصّ الصّحيفة. والأكثر من ذلك أنّه لا يوجد في القرآن ما يشير من قريب أو بعيد إلى هذه الصحيفة. وعلى هذا الأساس، يمكن القول إنّ أقدم ذكر لها ورد في سيرة ابن إسحاق (ت. 151هـ/748م) التي وصلتنا بتهذيب ابن هشام (ت. 213هـ أو 218هـ/829 أو 833م)؛ كما وصلتنا صيغ أخرى منها عند كلّ من أبي عبيد بن سلاّم (ت. 224هـ/ 839م)، وابن زنجويه (ت. 251هـ/865م)، ثمّ أعاد المتأخرون إنتاجها من أمثال النويري (ت. 733هـ/1333م) أو ابن سيّد النّاس (ت. 734هـ/1334م) أو ابن كثير (ت. 774هـ/1347م).

وعلى الرغم من إغفال الكثير من المصادر العربيّة الإسلاميّة ذكر صحيفة المدينة بقصد أو بغير قصد، وخاصّة المصادر التّاريخيّة منها، فقد أولى لها الدّارسون المعاصرون من مختلف اختصاصات العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة الكثير من الاهتمام منذ أواخر القرن التّاسع عشر وحتّى زمننا الحاضر. وقد ذهب الأمر بهؤلاء الدّارسين إلى اعتبارها بمثابة ''دستور للمدينة،'' أو أنّها ''أوّل دستور،'' أو أنّها ''أسّست لمفهوم أمّة مختلفة الأعراق والأديان،'' وذهب الأمر ببعضهم الآخر إلى اعتبارها مؤسّسة ''للمواطنة وضامنة لحقوق وواجبات كلّ النّاس في المدينة.'' فهل من تفسير لهذا التّفاوت في الاهتمام بهذه الصحيفة بين القدامى والمحدثين؟ وما هو كنه المحتوى الذي تتضمّنه، والزمن الذي كتبت فيه بنودها؟ وهل يعبّر هذا المحتوى عن إرادة لتصفية ما تخلّد من نزاعات الماضي بين مختلف الفاعلين من سكان المدينة، أم فيه ما من شأنه أن يرسم مستقبل هؤلاء الفاعلين في كنف الدّين الجديد؟

تتناول هذه الورقة موضوعا قديما جديدا، حظي باهتمام الباحثين المحدثين منذ القرن التّاسع عشر، ولا يزال يشغلهم حتّى الآن، ويتعلّق بـ ''صحيفة المدينة'' التي أجمع أغلب الدّارسين على نسبتها إلى بداية عهد النّبوّة بعد هجرة الرسول من مكة إلى يثرب. والحقيقة أن ''صحيفة المدينة'' لم تكن الكتاب الوحيد الذي أصدره النّبيّ، بل أصدر كذلك العديد من الكتب الأخرى المتمثلة في عهود الصّلح، ورسائله إلى ملوك عصره التي تناولت قضايا كثيرة

منها ما يتعلّق بطبيعة العلاقة بين الرسول وكافة المؤمنين، ومن ورائهم الدّين الجديد، بالعديد من الأطراف في الجزيرة العربيّة وخارجها. لكن عهود الصّلح هاته، ورسائل النّبيّ إلى الملوك، لم تحظ باهتمام الباحثين المحدثين مثلما هو الحال بالنسبة لـ ''صحيفة المدينة،'' وذلك على الرّغم من أنّ ذكرها في المصادر كان على نفس القدر من الأهميّة. ولا يخفى أن ''صحيفة المدينة،'' مثلها مثل بقيّة كتب النبيّ وعهود الصّلح التي عُقدت زمن الفتوحات الكبرى، لم ترد إلاّ في عدد قليل من مصادر القرنين الثاني والثالث للهجرة/الثامن والتّاسع للميلاد، مثل بعض مصادر السّيرة والفتوح والأموال والأحكام، كما لم ترد منها سوى بعض الشذرات المتناثرة في بقيّة المصادر التّاريخيّة والأدبيّة وكتب الطبقات والأنساب والتّراجم والجغرافيا. أمّا المصادر المتأخّرة، والتي تعود إلى القرن السّادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد وما بعده، وبحكم طبيعتها الموسوعيّة، فإنها استعادت كلّ ما تمّ تدوينه سابقا في كلّ مجالات العلوم الإسلاميّة، ومن أبرز هذه المصادر الموسوعيّة **الكامل في التّاريخ** لابن الأثير، و**البداية والنّهاية** لابن كثير و**نهاية الأرب في معرفة الأدب** للنّويري. وعلى الرغم من ندرة ذكر ''صحيفة المدينة،'' وكتب النبيّ ورسائله الأخرى ورسائل خلفائه، في المصادر المتقدّمة ووفرتها في المصادر المتأخّرة، فقد انصبّ اهتمام الباحثين المحدثين[1] على هذه الصحيفة لأنّهم اعتبروها وثيقة مؤسّسة لأمّة متعدّدة الأعراق والدّيانات

[1].لا بدّ من الإشادة في هذا الإطار بالكتاب الأخير الذي أصدره الباحث يحيى بلحسن الذي جمّع فيه كلّ المعطيات البيبليوغرافيّة المتعلقة بـ ''صحيفة المدينة،'' والذي بفضله أمكننا الاطلاع بصفة تكاد تكون شاملة على كلّ ما كتب حول هذه الصحيفة بصفة علميّة. وتتمثل هذه الكتابات حسب التّرتيب الأبجدي لأسماء كتّابها في:

Saïd Ami Arjomand, "The constitution of Medina: a sociolegal interpretation of Muhammad's acts of foundation of the Umma," *International Journal of Middle Eastern Studies* 41 (2009): 555-75; Frederick M. Denny, "Umma in the constitution of Medina," *Journal of Near Eastern Studies* 36 (1977): 39-47; Fred M. Donner, "From believers to Muslims: confessional self-identity in the early Islamic community," *Al-Abḥath* 50-51 (2002-2003): 9-53; Elias Giannakis, "The concept of Ummah," *Graeco-Arabica* 2 (1983): 99-111; Moshe Gil, "The constitution of Medina: A reconsideration," *Israel Oriental Studies* 4 (1974): 44-65; Akira Goto, "The constitution of Medina," *Orient (Tokyo)* 18 (1982): 1-17; Muhammad Hamidullah, *The first written constitution in the world: an important document of the time of the holy prophet* (Lahore: éd. Muhammad Ashraf, 1968); Michael Lecker, *The constitution of Medina: Muhammad's first legal document* (Princeton: The Darwin Press, 2004); Paul Rose Lawrence, "Muhammad, the Jews and the Constitution of Medina: Retrieving the historical kernel," *Der Islam* 86 (2011): 1-29; Uri Rubin, "The constitution of Medina," *Studia Islamica* 62 (1985): 5-23; R.B. Serjeant, "The constitution of Medina," *Islamic Quartely* 8 (1964): 3-78; R.B. Serjeant, "The Sunnah Jâmi'ah, Pactswith the Yathrib Jews and the tahrîm of Yathrib: Analysis and the translations of the documents comprised in the so- called constitution of Medina," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 41 (1978): 1-42; Harald Suermann, "Die Konstitution von Medina Erinnerung an ein anderes Modell des Zusammenlebens," *Collectanea Christiana Orientalia* 2 (2005): 225-44; Julius Welhausen, "Muhammads Gemeindeordung von Medina," in *Skizzen und vorarbeiten* 4 (Berlin: éd. G. Reimer, 1889), 65-83; Arent Jan Wensink, *Muhammad and the Jews of Medina* (Leiden: E. J. Brill,

والتّنظيمات الاجتماعيّة. وكان من نتائج ذلك أن كثر الجدل بشأنها من دون أن يتم الحسم في الكثير من القضايا التي أثيرت حولها. ولعلّ من أهمّ هذه القضايا تاريخ كتابتها وطريقة تركيبها وهيكلتها من خلال التّساؤل حول ما إذا تعلّق الأمر فيها بنصّ واحد أم أنّها عبارة عن مقاطع متفرّقة تمّ تجميعها بعد انتشار التّدوين؟ هذا بالإضافة إلى معنى الأمّة في هذه الوثيقة وعلاقته باليهود الذين لم تذكر الصّحيفة أسماء قبائلهم المشهورة في كتب السّيرة، وغيرها من القضايا التي تمّ فيها إعادة النّظر أو وقع التّطرّق إليها لأوّل مرّة.

في وصف "الصحيفة" وطبيعتها

لم تحظ ’’صحيفة المدينة‘‘ بأهمية كبيرة في المصادر الإسلاميّة المتقدّمة التي تعود إلى النّصف الثاني من القرن الثاني والقرن الثالث للهجرة/النصف الثاني من القرن الثامن والقرن التّاسع للميلاد.[2] بل اقتصر ذكرها على سيرة ابن إسحاق/ابن هشام (ت. 213 أو 218هـ/828 أو 833م)،[3] وعلى كتابي الأموال لكل من أبي عُبيد القاسم بن سلام (ت. 224هـ/839م)،[4] وابن زنجويه (ت. 251هـ/865م)،[5] مع ما فيهما من الاختلاف مقارنة مع سيرة ابن إسحاق/ابن هشام. أمّا المصادر العربيّة الإسلاميّة المتقدّمة الأخرى مثل طبقات ابن سعد، وأنساب البلاذري وتاريخ الطبري، والتي تضمّنت جميعها سيرة النّبي، فلم يرد فيها نصّ هذه الصّحيفة، بل اكتفت بالإشارة إليها فقط فيما يتعلّق بديّة الدّم (معاقل). وخلافا للمصادر المتقدّمة، تمّت إعادة ذكر هذا النصّ في أغلب المصادر العربيّة الإسلاميّة المتأخّرة، سواء المتخصّصة منها في السّيرة النبوية

1908); Al-Tayib Zein al-Abdin, “The Political Significance of the Constitution of Medina,” *Arabian and Islamic Studies* (1983): 146-52.

وقد تمّ الاعتماد في الاطلاع على هذه القائمة من الأعمال على:

Yahia Bellahcene, *La Ṣahīfa de Médine* (*VII^e siècle*): *Une relecture critique* (Piscataway: Gorgias Press, 2021), 454.

هذا وتجدر الإشارة إلى الاكتفاء باستعراض الأعمال المخصّصة حصريًا للصّحيفة دون الأخذ بعين الاعتبار للدّراسات التي تعرّضت لدراساتها في أعمال أوسع من الصّحيفة مثل سيرة النّبيّ وغيرها.

[2]. Hichem Djait, *La vie de Muhammad: le parcours du prophète à Médine et le triomphe de l’islam* (Tunis: Cérès éditions, 2012), 88-9.

[3]. عبد الملك بن هشام، **السّيرة النّبويّة**، تحقيق مصطفى السّقّا وإبراهيم الأبياري عبد الحفيظ شلبي، ج. 2 (بيروت: دار إحياء التّراث العربي ومؤسّسة التاريخ العربي، 1993)، 501-504.

[4]. أبو عبيد بن سلام، **كتاب الأموال**، تحقيق وتعليق أبو أنس سيّد بن رجب، ج. 1 (القاهرة، الرياض: دار الهدي النّبوي ودار الفضيلة، 2007)، 307-312.

[5]. حميد بن زنجويه، **كتاب الأموال**، تحقيق شاكر ذيب فيّاض، ج. 5 (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدّراسات الإسلاميّة، 1986)، 455.

مثل السّهيلي (ت. 581هـ/1185م) [6] وابن سيّد النّاس (ت. 743هـ/1343م)،[7] أو الموسوعيّة مثل كتب ابن كثير (ت. 774هـ/1373)[8] والنويري (ت. 677هـ/1278م).[9] مع العلم أن العودة إلى ذكر ''صحيفة المدينة'' قد جاء في إطار الحركة العلميّة الواسعة التي شملت كتابة السّيرة النّبويّة مع ظهور الكتابة الموسوعيّة لعلماء انتشروا في الشام ومصر والأندلس وبلاد المغرب، فضلا عن المدينة والعراق. ويحيل التّمعّن في نصّ الصحيفة كما ورد في المصادر العربيّة الإسلاميّة، وخاصّة في كلّ من سيرة ابن هشام[10] وكتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام،[11] – بوصفهما النّصّين الأصليّين الذين وقع اعتمادهما في كلّ النّصوص التي جاءت بعدهما، وخاصة خلال القرون 6 و7 و8 للهجرة/12 و13 و14 للميلاد – إلى التّساؤل حول الكثير من النّقاط مثل عنوان الصحيفة، وما أضيف إليها، وما يكون قد نقص منها، والمعنيّون بما جاء فيها، والمفاهيم التي أسّست لها.

الصحيفة: تساؤلات حول عناوينها وما أضيف ليها

خلافا لما ذهب إليه أغلب الباحثين الذين أطلقوا عناوين مختلفة على هذه ''الصحيفة'' مثل ''دستور المدينة''[12] و''صحيفة المدينة''[13] و''ميثاق المدينة''[14] و''وثيقة صحيفة المدينة،''[15] جاء عنوان هذا النّصّ عند ابن هشام كما يلي: ''كتابه (ص) بين المهاجرين والأنصار وموادعة اليهود.''[16] أمّا أبو عبيد فقد وضع لها العنوان التالي: ''وهذا

---

[6]. أبو القاسم السهيلي، **الرّوض الأُنُف في شرح السّيرة النّبويّة لابن هشام**، تحقيق وتعليق وشرح عبد الرّحمان الوكيل (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1967)، 346-350.

[7]. فتح الدين بن سيّد النّاس، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، ج. 1 (بيروت: دار الجيل، 1974)،197 و198.

[8]. إسماعيل بن كثير، **البداية والنّهاية**، شرح وتعليق عبد الله التّركي (القاهرة: دار هجر، 1997)، 555-558.

[9]. شهاب الدين النّويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، السفر 16 (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصريّة، 1955)، 348-351.

[10]. ابن هشام، **السّيرة النّبويّة**، ج. 2، 501-504.

[11]. ابن سلاّم، **كتاب الأموال**، ج. 1، 307-309.

[12]. Denny, "Umma," 39-47; Goto, "The constitution," 1-17; Rose, "Muhammad," 1-29; Rubin, "The constitution," 5-23; Serjeant, "The constitution," 5-23; Suermann, "Die Konstitution," 225-44; Welhausen, "Muhammads" 65- 83.

[13]. Bellahcene, *La Sahifa*, 454.

[14]. Serjeant, "The Sunnah Jâmi'ah," 391-408.

[15]. Robert Hoyland, "New documentary texts and the early Islamic state," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 69 (2006): 395-416.

[16]. ابن هشام، **السّيرة النّبويّة**، ج. 1، 501.

كتاب رسول الله بين المؤمنين وأهل يثرب وموادعته يهودها مقدمه إلى المدينة''.[17] وهو نفس العنوان الذي اعتمده ابن زنجويه.[18] وابتداء من القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، فقد تم تداول هذا النّصّ بعناوين أخرى مثل: ''ذكر الموادعة بين المسلمين واليهود'' عند ابن سيّد النّاس،[19] أو ''ذكر كتابه الذي أمر بكتبه بين المهاجرين والأنصار وموادعة اليهود'' عند النّويري في القرن الموالي.[20] فما هو العنوان الأصلي لهذه الصحيفة؟ وكيف نقرأ الاختلاف الجوهري بين عناوينها في المصادر وفي الدّراسات الحديثة؟

تكاد تجمع كلّ العناوين المذكورة أعلاه على ذكر اسم ''المدينة'' باعتبارها اسم المكان الذي صدرت فيه هذه الوثيقة، لكنّها تختلف في تسميتها، إذ تنعتها الدّراسات الحديثة بـ ''الدّستور'' و''الصحيفة'' و''الميثاق'' و''الوثيقة،'' بينما تعرف في أغلب المصادر، سواء المتقدّمة منها أو المتأخّرة، باسم ''الكتاب.'' وتنفرد هذه المصادر بالإشارة إلى رسول الله بوصفه صاحب هذا ''الكتاب،'' وإلى المهاجرين والأنصار واليهود والمؤمنين والمسلمين باعتبارهم المعنيّين بمضامينه، إلا أنها تختلف في تحديد نوع العلاقة التي يمكن أن تربط بين مختلف الأطراف المعنيّة بما ورد في الصّحيفة، حيث ذهب أغلبها إلى أنها تؤذن ببداية علاقة جديدة بين المهاجرين والأنصار أو المؤمنين وأهل يثرب مع مهادنة اليهود، في حين حصرها البعض الآخر في مجرّد مهادنة بين المسلمين واليهود. والملاحظ أن أغلب المصادر لم تحدد زمن كتابة هذه الصحيفة باستثناء ابن سلام وابن زنجويه اللّذَيْن ربطاها بقدوم الرّسول إلى ''المدينة،'' أي بزمن الهجرة.

وبالعودة إلى مضمون هذه ''الصحيفة'' نسجل الغياب التّامّ لعبارة ''المدينة،'' مما يبعث على الاعتقاد في أنّ وجودها في أغلب العناوين الواردة في المصادر – باستثناء سيرة ابن إسحاق/ابن هشام، وسيرة ابن سيّد النّاس ونهاية الأرب للنّويري –، هو من قبيل الإضافات اللاحقة التي اعتمدتها كلّ الدّراسات الحديثة تقريبا. ومردّ هذا الغياب إلى أنّ تسمية المدينة لم تكن قد ظهرت بعد، بدليل الإشارة في توطئة الصحيفة إلى ''أهل يثرب.'' ولا نجد في المصادر

---

17. ابن سلام، **كتاب الأموال**، 307.

18. ابن زنجويه، **كتاب الأموال**، 455.

19. ابن سيّد النّاس، **عيون الأثر**، 197.

20. النّويري، **نهية الأرب**، السفر 16، 348.

ما يساعدنا، ولو بصورة تقريبية، على معرفة التاريخ الذي أصبحت فيه يثرب تعرف بالمدينة، وإن كان جعيط قد ذهب إلى أنّ المدينة أو يثرب تحيلان على مجموع المركز الحضري الذي أنشأه النّبيّ[21] إلاّ أنّه لا يقدّم إفادات بخصوص زمن انتقال التّسميّة من يثرب إلى المدينة. لذلك نعتقد أنّ ظهور تسميّة المدينة قد ارتبط بنشأة الحرم، بمعنى حرمة المجال والسّكان، على شاكلة الحرم المكي الذي استغرق ما لا يقلّ عن خمس سنوات تمّت خلالها أسلمة كلّ الأوس والخزرج، فضلا عن التّخلّص من اليهود الذين رفضوا الاستجابة للدّعوة المحمّديّة.

وبالإضافة إلى عبارة المدينة، وردت في عنوان الصحيفة عبارات أخرى مثل المهاجرين والأنصار، الذين تمت تسميتهم في متن النّصّ بـ: ''... المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب... والمهاجرين من قريش.''[22] وقد يدلّ الاقتصار على ذكر المهاجرين دون الأنصار في متن نصّ الصّحيفة، على أنّ هذه الوثيقة قد كتبت في أوّل هجرة الرّسول وأصحابه إلى يثرب، لأنّ القرآن يشير في هذه المرحلة إلى ''الذين هاجروا...'' في أواخر السور المكيّة (النحل) وأوائل السّور المدنيّة (البقرة والأنفال)، ولم ترد عبارة المهاجرين لأوّل مرةّ إلاّ في سورة الحشر، التي نزلت حسب ترتيب نولدكة وبلاشير للقرآن في أواسط الفترة المدنيّة، كما لم يرد في القرآن ذكر لعبارتي ''المهاجرين والأنصار'' مترابطتين إلاّ في أواخر السّور القرآنيّة (التّوبة).[23] وعلى هذا الأساس، يمكن القول إن الإشارة إلى عبارتي ''المهاجرين والأنصار'' متلاصقتين في متن الصّحيفة هو من قبيل الإضافات اللاحقة للرّواة والمؤرّخين الذين دوّنوا كلّ ما يتعلّق بالإسلام الأوّل ابتداء من النّصف الثاني من القرن الثاني للهجرة/النصف الثاني من القرن الثّامن للميلاد. ومن العبارات التي تثير الانتباه أيضا في عناوين الصّحيفة الواردة في المصادر عبارة ''موادعة،'' التي لم ترد بدورها بتاتا في المتن، ما يؤكد أنها لا يمكن إلاّ أن تكون إضافة لاحقة من قبل المؤرخين القدامى للإيحاء بالتّفريق بين المقطع الأوّل من الصّحيفة، الذي اهتمّ بتنظيم العلاقة بين المؤمنين من قريش ويثرب، والمقطع الثاني منها الذي ينظم علاقتهم باليهود.

---

[21]. Djait, *Le parcours*, 46.

[22]. أنظر ابن هشام، **السّيرة النّبويّة**، ج.1، 501؛ ابن سلاّم، **كتاب الأموال**، 307.

[23]. حياة عمامو، **أصحاب محمّد ودورهم في نشأة الإسلام** (تونس: دار الجنوب للنّشر، 1996)، 13-43.

وقد حرصت الدّراسات الحديثة على توظيف عبارة ''المدينة'' في عناوين الصّحيفة، ولم تستخدم عبارة الصحيفة إلا نادرا رغم تكرارها عدة مرات في المقطع الأخير من نصها المتداول. أمّا بقيّة الألفاظ التي جاءت في عناوين الدّراسات الحديثة، فتتنوع بين كلمة ''دستور'' التي استعملت بضرب من الإسقاط، لأنّها لا تنتمي إلى القاموس اللّغوي لعصر الصّحيفة؛ أو عبارتي ''ميثاق ومعاهدة'' اللتين لا تنطبقان على مثل هذه الصّحيفة، لأنّها صدرت عن الرّسول بصفة أحاديّة، ولم تكن محلّ اتّفاق بين طرفين، كما يقتضيه الأمر في المواثيق والمعاهدات؛ أو عبارة ''وثيقة'' التي لا تتلاءم تماما مع طبيعة الصّحيفة مثلما سوف يتم بيانه لاحقا في هذه الورقة. فضلا عن مختلف العناوين التي بدت فيها إضافات القدامى والمحدثين منافية للقاموس اللّغوي للصّحيفة. وتجدر الإشارة أيضا إلى أنّ المصادر قد ذكرت فيما بين عنوان الصّحيفة ومتنها، تقديما تمت الإشارة فيه إلى ابن إسحاق بوصفه صاحب النّصّ الأصلي في بعض الأحيان مع اختزال للموضوع الذي وقع تناوله، وأسانيد الرّوايات المصريّة التي أخذت أصل النّصّ عن ابن شهاب الزّهري في أحيان أخرى.[24] ويعتبر هذا التّقديم إضافة قام بها كلّ الذين دوّنوا صحيفة ''المدينة'' من رواة ومؤرّخي النّصف الثّاني من القرن الثّاني للهجرة/النّصف الثاني من القرن الثّامن للميلاد وما تلاه.

وتُحيل الإضافات التي تمّ رصدها في عنوان الصّحيفة وتقديمها على أنّها لا تُمثل نصّا أصليّا، بقدر ما تمثّل إضافات تمّ تناقلها بين الرّواة لمدّة تناهز القرنين قبل أن يقع تدوينها في كتب السّير والفقه. فهل يمكن اعتبار هذه الصّحيفة التي كاد أن يجمع كلّ الذين تناولوها بالدّراسة على أصالتها (Authenticité) وثيقة تاريخية؟[25]

في طبيعة الصّحيفة

من خلال ما تقدّم، يمكن القول إنّ ''صحيفة المدينة'' تنتمي إلى ما أسمته وداد القاضي بـ ''الوثائق'' فيما يتعلّق بـ ''عهود الصّلح.''[26] وتتمثل هذه العهود–الوثائق في نصوص لم يقع تجميعها من متونها الأصليّة التي صيغت عليها لأول مرة، وإنّما تمت إعادة إنتاجها من

[24]. Bellahcene, *La Ṣahīfa*, 133-171.
[25]. Bellahcene, *La Ṣahīfa*, 72 et 73.
[26]. وداد القاضي، ''مدخل إلى دراسة عهود الصّلح الإسلاميّة زمن الفتوح،'' **مجلة الاجتهاد** 1 (1988): 47-113.

خلال وثائق ضاعت أصولها المكتوبة، وبقي الرّواة يتناقلونها شفاهيّا إلى أن تمّ تدوينها ابتداء من النّصف الثاني من القرن الثاني للهجرة/النصف الثاني من القرن الثامن للميلاد.[27] وعلى الرغم من هذا التّدقيق الذي قامت به وداد القاضي، فإن النّصوص التي تمت إعادة إنتاجها لا ترتقي إلى مستوى الوثائق الأرشيفية مهما كانت مطابقة لأصولها.[28] ولهذا السبب اعتبر هشام جعيط أنّ المصادر القديمة والوسيطة التي تختصّ بالكتابة الأدبيّة –من حوليات، ومصادر إخبارية ورحلات وجغرافيا–، هي شهادات واعية في معظمها، وأنه انطلاقا من القرن الخامس عشر أصبحت الوثائق الأرشيفيّة والشّهادات غير الواعية كثيرة.[29] وبعيدا عن التّفريق الذي ذهب إليه جعيط بين المصادر الأدبيّة السّرديّة –كما هو شأن المصادر العربيّة الإسلاميّة التي أوردت ''صحيفة المدينة''– والوثائق الأرشيفيّة، فإن هنالك العديد من المؤشّرات الأخرى التي تجعل هذه الصّحيفة، رغم إجماع الكثيرين على نسبتها إلى بداية عصر النّبيّ في يثرب، لا تصنّف ضمن الوثائق بالمعنى العلمي للمفهوم، حتّى وإن حافظت على محتواها الأصلي وذلك للأسباب التّالية التي أورد معظمها الباحث يحي بلحسن:[30]

- افتقادها لذكر الكاتب وتاريخ الصّدور ومكانه.
- عدم وجود شهود شهدوا على كتابة الصّحيفة.
- عدم وجود ختم.
- الإضافات التي أقحمت عليها في عنوانها وتقديمها، كما بيّنا أعلاه.

ولا يعني التّدقيق في التّفريق بين الوثيقة ونصّ الوثيقة الذي ذهبت إليه وداد القاضي، التّشكيك في صحّة محتوى ''صحيفة المدينة،'' الّذي يمكن أن يكون متطابقا مع النص الأصلي مع بعض النقائص أو الزّيادات مثلما وضّح ذلك كريكور شولر (Gregor Schoeler)[31] المختصّ في تناقل (la transmission) نصوص الإسلام المبكر الذي حسّن

---

[27]. القاضي، ''مدخل،'' 55.

[28].حياة عمامو ومحمد بنعبّاس، ''مفاوضات الصّلح زمن الحروب: فتوح إفريقيّة والمغرب نموذجا،'' ضمن **المفاوضات بين بلدان المغرب وأوروبا المتوسّطيّة من العصر الوسيط إلى القرن العشرين** (تونس: 2022)، 8.

[29].هشام جعيط، **تأسيس الغرب الإسلامي – القرن الأوّل والثّاني هـ/ السّابع والثّامن م –** (بيروت: دار الطليعة، 2004)، 217.

[30]. Bellahcene, *La Ṣahīfa*, 194.

[31]. Gregor Scholer, *Ecrire et transmettre dans les débuts de l'islam* (Paris: Presses Universitaire de France, 2002), 8-9.

بدرجة كبيرة معالجة مسألة نقل محتوى الوثائق والنّصوص من الشّفاهي إلى المكتوب، إذ استطاع التفريق بين فعل ’’الكتابة‘‘ الذي لا يعني دائما نشر ما كتب، وفعل ’’النّشر‘‘ الذي لم يكن يحدث لزمن طويل إلاّ عن طريق التّدريس بطريقة شفاهيّة، وذلك من خلال اعتماده على الثنائيّة المقتبسة من الإغريقيّة (Syngramma-hypomnéma). وهو ما يعني أنّ ’’صحيفة المدينة‘‘ حتّى وإن لم تصل إلينا إلاّ عن طريق السّير أو كتب الأموال باعتبارها وثيقة أصليّة (document authentique) على المحمل الذي كتبت عليه في عصر محمّد، وبالطّريقة التي كتبها الكاتب الذي أمره بذلك، والشّهود الذين شهدوا عليها، فإنّ محتواها لم يطرأ عليه تغيير باستثناء ما يقتضيه أمر إعادة إنتاجها في مصادر أدبيّة سرديّة متأخّرة عن زمن إنتاجها الأوّل باعتبارها وثيقة. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن ’’صحيفة المدينة‘‘ لا تنتمي إلى أحد العلوم الإسلاميّة التي بدأت تبرز منذ القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، والمتمثّلة في الحديث والتّفسير والسّير، ولذلك تنوقلت بإسناد مصري عن ابن شهاب الزّهري (ت. 124هـ/742م) في بعض النّسخ، وعن ابن إسحاق (ت. 151هـ/767م) في نُسخ أخرى، ولا نستطيع الجزم فيما إذا كانت عملية إعادة إنتاجها قد تمت عن طريق التّلاوة، وهي الطريقة المتداولة في نقل المعرفة في ذلك الزّمن، أم عن طريق نقل الصّحيفة الأصليّة المكتوبة. وقد ينطبق على هذه الصّحيفة ما ينطبق على ’’عهود الصّلح‘‘ الواردة في المصادر المتقدّمة، التي اعتبرتها وداد القاضي – عند مقارنة خصائصها من ناحية الشّكل بخصائص وثائق إداريّة وصلتنا نصوصها الأصليّة على ورق البردي– متطابقة إلى حدّ كبير مع العهود الأصليّة. فهي وإن كانت لا تمثّل نقلا حرفيّا لأصول عهود الصّلح المبرمة زمن الفتوح، إلاّ أنّها ليست موضوعة من حيث المبدأ، لا من جانب شخص واحد (أحد الرّواة أو غيره)، ولا بشكل منظّم مدروس ومتعمّد (لخدمة هوى ما)، وإنّما تناقلها الرّواة لمدّة زمنيّة طويلة بطريقة شفويّة في أغلب الأحيان، وهو ما أحدث ألوانا من الخلل (مثل استبدال مفردات بمفردات أخرى متطابقة في المعنى مختلفة في اللّفظ، أو السّهو عن عبارة ما...)، وهي بصفة عامّة يمكن أن تُعطي صورة قريبة جدّا لشكل وخصائص المعاهدات المكتوبة في عصر الفتوحات.[32] وما يُثير الانتباه في مسألة هذه ’’الوثائق القانونيّة‘‘

[32]. القاضي، ’’مدخل،‘‘ 59.

التي وقعت إعادة إنتاجها زمن التّدوين، هو ما نقلته وداد القاضي عن ألبرشت نوث عندما قارن شكل كتابة ''الوثائق'' ومحتوياتها من خلال عدّة أشخاص رأوا بأمّ أعينهم الصّحف الأصليّة للعهود المرويّة مثل ابن سلام في الأموال والبلاذري في فتوح البلدان وابن أعثم الكوفي في الفتوح وحتّى ابن عساكر في تاريخ دمشق، وهو ما يعني أنّ أصول هذه المعاهدات ظلّت متداولة ومعروفة حتّى القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد.[33]

هكذا يتبيّن أنّ ''صحيفة المدينة'' وإن اتّفق كلّ الباحثين بمن فيهم المشككون على نسبة مضمونها إلى بداية استقرار النّبي بيثرب ''المدينة'' فإنّ ذكرها في المصادر المتقدّمة بدءا بابن إسحاق، جعلها تتحوّل من شهادة لا واعية إلى شهادة واعية يرمي إدراجها في السّير وكتب الفقه إلى ترسيخها في ذاكرة المسلمين وضميرهم كشاهد من شواهد ''عبقريّة'' النّبي في فرض النّظام في مدينة استقر فيها حديثا.

وعلى هذا تكون ''صحيفة المدينة'' إذن ''كتاب'' وجّهه النّبي في بداية استقراره في يثرب ''المدينة'' إلى أطراف عديدة تتقاسم معه المجال الذي سيطر عليه. ولم يصل إلينا هذا الكتاب بنصه الأصلي ومحمله، لآنّ محامل الكتب لم تكن بالصلابة التي تجعلها تصمد أمام الزّمن، فضلا عن أنّ العرب كانوا يستغنون عن ''الوثائق'' كلّما تجاوزها الزّمن وتمّ إدراجها في كتب شاملة، لأنّ شعوب ذلك الزمان لم تكن تعرف بعد مؤسّسة الأرشيف؛ لذلك فإنّ وثائقهم الأصليّة لا تصل إلينا إلاّ إذا كتبت على موادّ صلبة مثل النّقائش ويتمّ العثور عليها عن طريق الصّدفة أو عن طريق الحفريّات العلميّة التي تتطلّب إمكانيّات ماديّة وبشريّة وعلميّة هائلة.

وبما أنّ النّقل المتتالي للإرث النّبوي وما تلاه تمّ بطريقة غير مشوّهة فيما يتعلّق بالعهود والوثائق الرّسميّة، وخاصّة فيما يتعلّق بهذه الصّحيفة، يتراءى لنا من الضّروري التّمعّن في مضمونها كما وصل إلينا من ناحية، والنظر في الفهم الذي جاء في الكثير من الدّراسات الحديثة من ناحية ثانية.

---

33. القاضي، ''مدخل،'' 58.

''صحيفة المدينة'' بين المضمون الأصلي وتأويلات المحدثين

لمعالجة ما ورد في مضمون ''صحيفة المدينة،'' اخترنا التّوقّف عند بعض المحطّات مثل المكانة التي يحظى بها النّبيّ في هذه الصّحيفة، والمواضيع المطروحة فيها، والأطراف المعنيّة بها. وللنّظر في كلّ هذه الإشكاليّات سيقع الاقتصار على نسختي سيرة ابن إسحاق/ابن هشام، وكتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلاّم باعتبارهما الأقدم والأكمل، ومصدر إعادة إنتاج بقيّة النّسخ اللاّحقة، فضلا عن وجود بعض الاختلاف بينهما.

ما هو موقع النّبيّ في الصّحيفة؟

دون الأخذ بعين الاعتبار لإضافات الرّواة والمؤرّخين في نسختي نصّ الصّحيفة المذكورتين أعلاه، ورد ذكر محمّد أربع مرّات في سيرة ابن هشام،[34] وثلاث مرّات في كتاب الأموال لابن سلام، مع الاكتفاء بصفته ''رسول الله'' في المرّة الثانية.[35] فما هو موقع محمّد في هذه الصّحيفة وما هو الدّور الذي يمكن أن يقوم به فيها؟

نسبت نسختا الصّحيفة صدورها إلى محمّد رسول الله، حيث جاء فيهما: ''هذا كتاب من محمّد النّبيّ (ص)، بين المؤمنين...''[36] دون الإشارة من بعيد أو قريب إلى حدوث أيّ اتّفاق بينه وبين الأطراف المذكورة فيها. وهي تختلف في ذلك عن ''صلح الحُديبيّة'' مثلما أعادت إنتاجه المصادر العربيّة الإسلاميّة، إذ ورد في استهلاله ''... هذا ما اصطلح عليه محمّد بن عبد الله (باعتباره مفاوضا باسم المؤمنين برسالته) وسهيل ابن عمرو (بوصفه مفاوضا باسم أسياد قريش في مكة)،''[37] ولكنّه يتّفق مع بقيّة عهود الصّلح التي أبرمها، النّبيّ في مرحلة أولى، مع المناطق المتاخمة للجزيرة العربيّة مثل تبالة وجُرش وتبّوك وأيلة وأذرح ومقنا ونجران،[38] ومعاهدات الصّلح التي أبرمها في مرحلة ثانية وُلاة الخلفاء الأوائل للدّولة الإسلاميّة وقادتهم

---

[34]. ابن هشام، **السّيرة النّبويّة**، ج. 2، 501 و503.

[35]. ابن سلاّم، **كتاب الأموال**، 307 و309.

[36]. ابن هشام، **السّيرة النّبويّة**، ج. 2، 501؛ ابن سلاّم، **كتاب الأموال**، 307.

[37]. محمد بن عمر الواقدي، **المغازي**، ج. 2، تحقيق مادرسن جونس (لندن: جامعة أكسفورد، 1966)، 611 و612.

[38]. أحمد بن يحيى البلاذري، **فتوح البلدان**، تحقيق عبد الله الطبّاع وعمر أنيس الطبّاع (بيروت: مؤسّسة المعارف، 1987)، 79، 80، 81، 85، 86، 87 و88.

العسكريّين.[39] وقد ذُكر اسم محمّد مرة ثانية في الصّحيفة مع اختلاف طفيف بين النّسختين ''... وأنّكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإنّ مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمّد (ص)...،''[40] ومرّة ثالثة على هذا النّحو ''... وإنّه لا يخرج منهم أحد إلاّ بإذن محمّد (ص)...''[41] أمّا المرّة الرّابعة التي ذُكر فيها اسمه فقد جاء في نصّها ''وإنّه ما كان بين أهل هذه الصّحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده، فإنّ مردّه إلى الله عزّ وجلّ، وإلى محمّد رسول الله (ص)''[42] ولن نعود إلى ما يمكن أن يكون قد لحق هذه الاستشهادات من إضافات فيما يتعلّق بعبارات مثل ''رسول الله '' و''النّبيّ'' و''صلّى الله عليه وسلّم،'' لأنّ البحوث السّابقة أتت على كلّ ما يهمّ هذه المسألة ولم تترك فيها شاردة ولا واردة.[43]

إنّ ما يهمّنا من خلال الإشارات المذكورة أعلاه هو المكانة التي احتلّها الرّسول محمد ودوره في''صحيفة المدينة.'' فهو الذي أصدر ''هذا الكتاب'' ممّا يبوّئه مكانة عليا مقارنة باللّذين تلقّوه، وبذلك يبرز بوصفه قائدهم الجديد، الذي أوكل إلى نفسه تسيير أمور حياتهم باعتبارهم مجموعة جديدة (أمّة) فوق القبائل والعشائر التي لم ينف وجودها. وتُبرز الإشارتان الثانية والرّابعة دور الحكم الذي أعطاه محمّد لنفسه، وهو ما يُؤهّله إلى فضّ الخلافات التي يمكن أن تنشب بين مكوّنات المجموعة التي أعلن أنّه يقودها، فضلا عن تفرّده بالعمل دون ما من شأنه أن يحول عن فقدان النّاس لأمنهم وسلامتهم، غير أنّ هذا التّحكيم لن ينبع منه وحده وإنّما من ''الله عزّ وجلّ'' أيضا، وهو ما يوحي بأنّ الحكم بين النّاس سيكون بمشيئة الله بما أنّه نابع من القرآن الذي ما زال لم ينزل بعد، وهو ما يدلّ على أنّ الجزء الأوّل من الصّحيفة وربّما بعض بنود الجزء الثاني قد عُقد أشهر قليلة بعد هجرة كلّ القرشيّين المؤمنين برسالة محمّد من مكة نحو يثرب. أمّا الإشارة الثالثة فتتعلّق باشتراط عدم خروج اليهود ومواليهم من ''المدينة''

---

[39]. راجع مثلا صلح عمر بن الخطّاب لأهل إيليا بفلسطين، أو معاهدة عمرو بن العاص لأهل مصر: محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرّسل والملوك**، ج. 4، تقديم ومراجعة صدقي جميل العطّار (بيروت: دار الفكر، 2002)، 191 و269.

[40]. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج. 1، 503. وورد في كتاب الأموال ''... وأنّكم ما اختلفتم فيه من شيء، فإنّ حكمه إلى الله –تبارك وتعالى– وإلى الرّسول (ص).''. ابن سلاّم، **كتاب الأموال**، 308 و309.

[41]. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج. 1، 503. وجاء في كتاب الأموال ''... وأنّه لا يخرج أحد منهم إلاّ بإذن محمّد (ص)...'' ابن سلاّم، **كتاب الأموال**، 309.

[42]. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج. 1، 504؛ وذكر ابن سلاّم نفس الجملة مع تغيير في بعض ألفاظها بطريقة يمكن أن تُغيّر المعنى ''وأنّه ما كان بين أهل هذه الصّحيفة من حدث يُخيف فساده، فإنّ أمره إلى الله وإلى محمّد النّبيّ''. ابن سلاّم، **كتاب الأموال**، 509.

[43]. أورد يحيى بن الحسن في فصل عنونه بـ: ''محمد النبي، الرسول'' كل الجدل الذي خاض فيه الباحثون الغربيون حول صحيفة المدينة. انظر:
Bellahcene, *La Ṣahīfa*, 371-81.

إلاّ بإذن محمّد، وتدلّ هذه الإشارة رغم اقتضابها على الإرادة القويّة لمحمد في التّحكم في حركة تنقّل اليهود رغم إبقائهم على دينهم، تجنّبا لإمكانيّة تحالفهم مع طرف آخر خارج يثرب لا يكون مواليا له. ويصبح بذلك اشتراط خروج اليهود بإذن محمّد إعلانا على زعامته السّياسيّة على كلّ المقيمين في يثرب/المدينة بمختلف أديانهم وأعراقهم وليست حكرا على الذين استجابوا إلى دعوته الدّينيّة. وهنا تُطرح مشكلة ''حرم المدينة''، الذي يبدو أنّه تأسّس منذ استقرار محمّد بها مباشرة بعد بناء المسجد ومنازل الرسول بعد بضعة أشهر من هجرته إليها، علما بأنه قد ورد في الصّحيفة ما يُشير إلى هذا المفهوم ''وإنّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصّحيفة.''[44] ويبدو أنّ ''حرم المدينة'' قد انطلق تأسيسه من المركز الذي أنشأ فيه محمّد مسجده ومساكنه، ثمّ توسّع شيئا فشيئا إلى أن ضمّ مجموع المجال الذي أقام فيه الأوس والخزرج واليهود منذ قرون، وذلك عبر إجلاء اليهود في مرحلة أولى، ثمّ أسلمة كلّ الأوسيّين الذين تخلف منهم الكثير عن الاستجابة إلى دعوة النّبيّ في مرحلة ثانية، وإبادة من تبقّى من اليهود في مرحلة ثالثة. وقد تمّ هذا التّدرّج في التحوّل من يثرب إلى ''المدينة الحرام'' خلال الخمس سنوات الأولى بعد هجرة النّبيّ وأصحابه من مكة إلى يثرب/المدينة. ويمكن أن يحيل توجّه سيطرة محمّد على اليهود من خلال التّحكم في تحركهم من ناحيّة والتّحريم التّدريجي للمجال الجديد الذي هاجر إليه إلى رغبته في تحقيق الأمن الذي افتقده كلّ سكان يثرب عربهم ويهودهم نتيجة الحروب المتكرّرة والنّزاعات المتواصلة فيما بينهم منذ زمن بعيد. وقد وعى محمّد أنّ هذا الأمن لن يكون ممكنا مثلما هو عليه شأن الحرم المكي، إلاّ متى توفّرت إرادة سياسيّة قادرة على فرض سلطتها عبر هذا الكتاب الذي يبقى رغم صدوره عن النّبيّ ''وثيقة'' سياسيّة قانونيّة وليست دينيّة.

ويبرز محمّد في هذه الصّحيفة باعتباره زعيما سياسيّا، يتزعّم مختلف الأطراف المعنيّة بمضمونها، ويتولّى الحكم في الخلافات والخصومات التي تحدث بينهم حسب ما يريد الله. فمن هم المعنيّون بهذا الكتاب الصادر عن النبيّ محمّد وهل يكوّنون أمّة واحدة؟

44. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج. 1، 504؛ وورد عند ابن سلاّم نفس الشّيء مع تغيير عبارة ''يثرب'' بعبارة ''المدينة،'' **كتاب الأموال**، 509.

من هم المعنيّون بمضمون الصّحيفة وهل يكوّنون أمّة واحدة؟

سبق وأن تمّت الإشارة إلى أنّه لا يوجد في مضمون ''صحيفة المدينة،'' ما ينمّ على أنّ النّبيّ محمّدا قد تشاور مع أيّ طرف من الّذين ذكرتهم هذه ''الصّحيفة'' حول ما ورد فيها من ''أحكام'' للعيش المشترك فيما بينهم، ولذلك يمكن اعتبارها ''كتاب،'' توجّه به صاحبه باعتباره قائدا وزعيما لمجموعة جديدة، قابلة للتّطوّر العددي في المستقبل، والأهمّ من ذلك أنّ لهذه المجموعة ''حلفاء'' لهم واجبات معيّنة تجاهها، كما أنّ لها ''أعداء'' ضبطت ''الصحيفة'' كيفيّة التّعامل معهم. ولئن لم يبرز الجانب الدّيني في هذه ''الصّحيفة،'' غير أنّ هذا لم يمنع من ورود بعض الإشارات التي تجعل زعامة محمّد على أهل هذا ''الكتاب'' مستمدّة من ''الله تعالى.''

وقد تمّ التّدرّج في ذكر المعنيّين بأمر ما ورد في هذه ''الصّحيفة'' من العام إلى التّفصيل، ومن الأقلّ إلى الأكثر تدقيقا، فكان الانطلاق من ذكرهم كمجموعة جديدة تتكوّن من ''المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم،''[45] إلى التّدقيق في هويّاتهم من داخل قريش لأنّ المعنيّين بالأمر منهم يقتصرون على ''المهاجرين من قريش''؛ أمّا المعنيّون بالأمر من أهل يثرب فهم بنو عوف، وبنو ساعدة، وبنو الحارث، وبنو جُشم، وبنو النّجّار، وبنو عمرو بن عوف، وبنو النّبيت، وبنو الأوس. ويمثّل اليهود فئة مغايرة للمعنيّين بأمر هذه الصّحيفة بسبب عدم التّنصيص عليهم باعتبارهم فئة مستقلّة، وإنّما في علاقتهم ببطون أهل يثرب المذكورة أعلاه. وقد تناولت الدّراسات الحديثة العديد من القضايا ذات الصّلة بمختلف هذه المكوّنات السوسيولوجيّة المعنيّة بأمر هذه ''الصّحيفة،'' ومن أبرزها ما تعلّق بالمؤمنين وإنشاء الأمّة التي يتزعّمها محمّد وعلاقتهم باليهود. ففيما يتعلّق بالمؤمنين أبدى الباحثون الغربيّون اهتماما خاصّا بفئة المهاجرين، إذ اعتبر الكثير منهم (L. A. De Premare, Ch. Décobert, P. Crone, M. Cook…) أنّ الاشتقاق في تسميّتهم يمكن أن يعود إلى هاجر أمّ إسماعيل الجدّ الأوّل للعرب، خاصّة وأنّهم كانوا يُعرفون في مصادر الشّعوب المجاورة لهم، وبالذّات الأرمينيّة والسّريانيّة منها، باسم الهاجريّين؛ في حين اعتبرت الباحثة لندستيد

[45]. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج.1، 501؛ ابن سلاّم، **كتاب الأموال**، 307.

(I. Lindstedt) أن لفظ المهاجرين ليس اشتقاقا من هاجر وإنّما من هجر، هجرة.[46] وإلى جانب المهاجرين حظيت عبارة ''يهود'' التي وردت عديد المرّات في ''صحيفة المدينة،'' وعلاقتهم بـ ''أمّة المؤمنين'' الجديدة التي يتزعّمها محمّد، باهتمام فائق من قبل المستشرقين منذ القرن التّاسع عشر، وتواصل هذا الاهتمام بنفس الوتيرة إلى الزّمن الحاضر. ومثلما كثر جدل الباحثين حول أصليّة الصّحيفة وتاريخ صدورها، تفاقم نقاشهم وتعمّق حول ماهية اليهود الذين ذكرتهم الصحيفة باعتبارهم موالي بطون القبائل اليثربيّة، وعلاقتهم بأمّة المؤمنين التي أسّسها محمّد. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ اختلاف الباحثين حول ماهية اليهود الذين ورد ذكرهم في الصّحيفة، وعلاقتهم بالمؤمنين من المهاجرين وأهل يثرب، نتج أساسا عن غموض في الألفاظ والمعاني التي وردت في نصّ هذه الصحيفة. أمّا الغموض الأوّل فقد نبع من قراءتين مختلفتين تتعلّقان بالرّبط بين يهود بني عوف ''أمّة مع المؤمنين،''[47] أو ''أمّة من المؤمنين.''[48] وأمّا الغموض الثاني فيعود إلى ذكر الصّحيفة لليهود باعتبارهم موالي لمختلف عشائر الأوس والخزرج وليس بوصفهم تشكيلات قبليّة مستقلّة. لقد أدّى هذا الغموض الثّنائي إلى اختلاف وجهات نظر الباحثين حول الأحكام والعلاقات التي أرادت أن تُرسيها ''صحيفة المدينة'' في يثرب تحت سلطة محمّد القادم إليها حديثا. وفي هذا السّياق أيّد شبرنجر (Sprenger) فكرة أنّ عبارة ''يهود بني عوف... لا تعود إلى اليهود الأصليّين، وإنّما تحيل على العرب الذين اعتنقوا اليهوديّة وانتموا إلى مختلف العشائر اليثربيّة.[49] غير أنّ فلهاوزن الذي ذهب إلى أنّ اليهود كوّنوا أمّة واحدة مع المؤمنين في ''صحيفة المدينة،''[50] اعتبر أنّ يهود بني عوف وغيرهم من العشائر اليثربيّة ينتمون إلى القبائل اليهوديّة الكبيرة وهم بنو قينقاع وبنو النّضير وبنو قريظة، واتّبعه في هذا التّمشّي فنسينک (Wensinck).[51] بينما استغرب واط (Watt) من عدم ذكر الثلاث قبائل اليهوديّة الكبرى، وافترض أنّ محمّدا قد جمّع اليهود حسب ولاءاتهم للعشائر العربيّة اليثربيّة، فجعل النّضير وقريظة في يهود الأوس وثعلبة،[52] وفي الاتّجاه نفسه يعتقد سرجنت

46. Bellahcene, *La Sahifa*, 241.

47. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج.2، 503.

48. ابن سلاّم، **كتاب الأموال**، 309.

49. Bellahcene, *La Ṣahīfa*, 265.
50. Djait, *Le parcours*, 90.
51. Bellahcene, *La Ṣahīfa,* 265.
52. Bellahcene, *La Ṣahīfa,*266.

(Serjeant) أيضا أنّ يهود الأوس لا يُمكن أن يكونوا إلاّ بني قُريظة.[53] أمّا روبان (Uri Rubin)، فيعتقد أنّ عبارة ''... يهود بني...'' تشير إلى يهود مجهولين ليس لهم مجال خاص بهم ولا قبيلة مستقلّة، لأنهم فقدوا لسبب أو لآخر مرجعيّاتهم. ولقد كانت لهؤلاء اليهود تحالفات مع قبائل عربيّة تقاسموا معها مجالاتها وأسمائها أيضا. ويفسّر روبان عدم ذكر ''صحيفة المدينة'' للقبائل اليهوديّة الكبيرة، بسعيها إلى تحقيق وحدة تقوم على ملكيّة الأرض وبالتّالي الوحدة المجاليّة، وهو ما لم يتوفّر عند هذه القبائل الكبيرة التي باتت الأراضي التي تملكها خارج مجال العرب وحلفائهم، ولذلك لم يكن إدماجهم في الصّحيفة أمرا مستعجلا.[54] وفيما يتعلّق باليهود وعلاقتهم بالأمّة التي أسّسها محمّد من خلال ''صحيفة المدينة،'' أكد مايكل ليكر (Michael Lecker) أنّه وبالرّغم من ذكر اليهود فيها، فإنّهم لا يمثلون طرفا أساسيّا في التّعاقد ولا عنصرا من الأمّة.[55] ولئن اشترك جعيط مع الذين اعتبروا أنّ اليهود لم يكوّنوا أمّة واحدة مع المؤمنين المعنيّين بما ورد في ''صحيفة المدينة،'' فإنّ طرحه لمسألة اليهود كان أكثر إلماما ووضوحا، لأنّه اعتبر من ناحية أنّ اليهود مثّلوا أمّة قائمة على الدّين ومختلفة عن أمّة المؤمنين، وذهب من ناحية ثانية إلى أنّه من غير الممكن أن يخصّص مثل هذا العدد من بنود الصّحيفة لبواقي من اليهود المتفرّقين بين العشائر العربيّة اليثربيّة، والحال أنّ عددهم قد تراجع وأهميّتهم قد تضاءلت إلى أقصى حدّ، فأهملت ذكرهم كتب السّيرة والتّاريخ. والحقيقة أنه قد تمّ ذكر التجمّعات اليهوديّة الكبرى في الصّحيفة ولكن بطريقة غير مباشرة، لأنّ اليهود بالنّسبة إلى النّبيّ لا وُجود لهم إلاّ عن طريق الدّين.[56] وخلافا لكلّ الباحثين السّابقين، يعتقد فريد دونر (Fred M Donner) اعتقادا جازما بأنّ اليهود ينتمون إلى نفس أمّة المسلمين، ويعتبر أنّ أمّة المؤمنين كانت في الأصل منفصلة عن الهويّة الدّينيّة، وأنها تتكوّن حسب رأيه من كلّ إنسان يؤمن بالله الواحد، ويعمل من أجل إيجاد الطريق المستقيم استعدادا للنهاية الوشيكة للعالم.[57]

يبيّن استعراض ما تناوله الباحثون في أمر المعنيّين بما ورد في الصّحيفة أنّ التركيز قد وقع على اليهود في علاقتهم بالأمّة التي أسّسها محمّد، إذ لم تتم العناية ببقيّة المعنيّين بمضامين

[53]. Bellahcene, *La Ṣahīfa,* 266.
[54]. Bellahcene, *La Ṣahīfa*, 266.
[55]. Bellahcene*, La Ṣahīfa,* 262-63.
[56]. Djait, *Le parcours*, 91-2.
[57]. Donner, "From believers," 11-2.

الصحيفة إلا في حدود ضيقة، ولم تُثَر حولهم تساؤلات ذات شأن. ويتعلق الأمر ''بالمؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.'' ومن الواضح أنّ المقصود بهؤلاء هم المستجيبون للدّعوة المحمّديّة من القرشِيّين ومن سكان يثرب بعد أن هاجر الرّسول وأصحابه إليهم. أمّا نعتهم بـ ''المؤمنين والمسلمين،'' فقد يعود إلى ما يمكن أن يكون قد تعرّض إليه نصّ الصّحيفة من بعض التّحريفات أو الإضافات أو الاختزالات التي وإن لم تؤثّر على المعنى، فإنّها تسرّب إليه بعض الغموض الذي يمكن أن يُعيق الفهم أو يجعله فهما متعدّدا. فتعبير ''المؤمنون والمسلمون'' هو تعبير عام يُدلّل على المعنيّين بخطاب الصّحيفة، والذي يمكن أن يكون قد أضيف إليه لفظ ''المسلمين'' بعد عقود من التّداول الشّفوي؛ كما يمثّل هذا التعبير النّواة الأساسيّة للإعلان عن تأسيس كيان سياسي جديد منفتح اسمه الأمّة تحت زعامة النّبيّ محمّد. أمّا جِدّته فتعود لتجاوزه الإطار القبلي، وأمّا انفتاحه فيرجع إلى قابليّة جسم الأمّة الحديث النّشأة إلى التّطور عدديّا بسبب قبوله استيعاب التّابعين لعناصر الأمّة للالتحاق بمن سبقوهم في الإيمان الذي يخوّل لهم الانخراط في الجهاد. وهكذا يتبيّن أنّ الصّحيفة أسّست لأمّة تتكوّن من مجموعة صغيرة من المؤمنين بمحمّد والقابلة للتّطوّر عبر انفتاحها على مؤمنين جدد، فمن هم هؤلاء ''المؤمنون والمسلمون'' الذين ذكرتهم الصّحيفة بالتّفصيل؟

تتكوّن ''أمّة المؤمنين'' التي أسّسها محمّد حسب ترتيبهم في الصّحيفة من ''المهاجرين من قريش،'' وهم أولئك الذين هاجروا مع محمد من مكة إلى يثرب وهم الذين ورد عنهم في القرآن: ﴿ وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾[58] وورد أيضا: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّک لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّک مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[59] صحيح أنّ جميع المهاجرين إلى يثرب كانوا ينتمون في البداية إلى قريش التي تتكوّن من عديد العشائر، ويتوزّع المنتمون إليها إلى صرحاء وحلفاء وموالي،[60] ولذلك لم يمثّلوا كتلة منسجمة عندما كانوا في مكة، إلا أنّ انتقالهم للعيش في يثرب جرّد أثرياءهم من كلّ أموالهم التي أُجبروا على تركها في مكة، ومن هذا المنطلق يمكن القول إنّ

[58]. سورة النّحل، الآية: 41.

[59]. سورة النّحل، الآية: 110.

[60]. عمامو، **أصحاب محمد**، 82 و83.

الأوضاع الاجتماعيّة لكلّ الذين قدموا من مكة أصبحت متشابهة، ولعلّ هذا ما جعل الصّحيفة تكتفي بذكر انتمائهم القبلي دون العشائري مع التّأكيد على كونهم مهاجرين، وهذا ما يعطيهم مكانة خاصّة داخل الأمّة الجديدة. وإلى جانب المهاجرين من قريش تذكر الصحيفة ثمانية بطون من أهل يثرب وتتغاضى تماما عن ذكر قبيلتي الأوس والخزرج، مع العلم بأن هذه البطون قد تفرّعت بدورها إلى بطون أو عشائر فرعيّة كما ورد في طبقات ابن سعد وجمهرة أنساب ابن حزم،[61] ويُمكن تفسير ذكر الصّحيفة للبطون الأصلية للأوس والخزرج إلى عدم انخراط البعض منها بعد تفرّعها في الإيمان بمحمّد بالرّغم من ذكر الأوس وهي أوس مناة قبل أن تتحوّل مع إسلام كلّ عناصرها إلى أوس الله.[62] ومثلما لم تذكر الصّحيفة قبيلتي الأوس والخزرج، لم تذكر قبائل اليهود، وذلك لأنّها لا تعتبرهم مكوّنا من مكوّنات الأمّة، بقدر ما ترى فيهم حلفاء أو موالي لبطون يثرب، ولذلك فهم مطالبون بالإنفاق معهم ما داموا محاربين مع الإبقاء على ديانتهم اليهوديّة.[63]

ولئن كان الهدف الأساسي من وراء هذه الصّحيفة هو إعلان تأسيس أمّة على أساس الانتماء الدّيني، إلا أنّ هذا لم يلغ الحفاظ على هياكل القبيلة والبطون القديمة التي لم يولها الباحثون المحدثون اهتماما، لأنّ تركيزهم انصبّ على اليهود. وقد ساهم هذا التّركيز الانتقائي على هؤلاء اليهود في تغذيّة الجدل بين الباحثين وتعميقه لمدّة تجاوزت القرن، وهو ما أنتج أستوغرافيا (Historiograhie) مهمّة ومتواصلة تجاوزت بكثير الحظوة التي نالها موضوع اليهود في الصّحيفة في المصادر القديمة.

مواضيع الصحيفة بين الأمّة الجديدة والهياكل القبليّة الموروثة

إذا ما سلّمنا بأنّ الجزء الأوّل من الصّحيفة قد أصدره محمّد مباشرة بعد هجرته مع أصحابه من مكة إلى يثرب واستقراره بها، فإنّ هذا الأمر يستوجب قراءة في واقع مكان الاستقرار الجديد لتهيئته من أجل استقبال قادمين جدد يفتقدون تماما لموارد الرّزق، و"سلطة"

---

[61]. عمامو، **أصحاب محمد**، 109 و110.

[62]. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج. 2، 502؛ ابن سلام، **كتاب الأموال**، 508.

[63]. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج. 2، 503؛ ابن سلام، **كتاب الأموال**، 509.

جديدة يستمدّ صاحبها شرعيّته ممّا يوحى إليه من الله. فكيف كان واقع يثرب عند هجرة النّبيّ وأصحابه؟ وما هي الإجراءات التي يجب أن تتّخذ بصفة عاجلة حتّى يمكن ضمان العيش المشترك بين انتماءات قبليّة ودينيّة مختلفة؟

واقع يثرب زمن الهجرة

كان واقع أهل يثرب صعبا جدّا زمن قدوم النّبيّ وأصحابه إليها، وذلك بسبب العنف والصّراعات التي احتدمت فيما بينهم طيلة نصف قرن من الزمن،[64] وذلك لأنّ تركيبتهم الاجتماعيّة تختلف عن تركيبة أهل مكة. فإذا كان أهل مكة يمثلون مجموعة قبليّة موحّدة يقوم اقتصادها على التّجارة وثقافتها على قدسيّة ديانة وثنيّة لها طقوس متطوّرة، فإنّ أهل يثرب ينتمون إلى مجموعتين قبليّتين (الأوس والخزرج)، وتتفرّع كلّ واحدة منهما إلى عدّة بطون وعشائر، ويقوم اقتصادهم على الأرض وإنتاج الواحة، وبما أنّ عدد سكان يثرب كان يتطوّر مع تقدّم الزّمن، فإنّ التوسّع على حساب أراضي زراعيّة أخرى كان يُعتبر ضرورة ملحّة بالنّسبة إلى هؤلاء السّكان. وفي هذا الصّدد ذكر واط أنّ الأرض المطلوبة لتوسّع البطون والعشائر اليثربيّة لم تكن منعدمة غير أنّ تهيئتها كانت تتطلّب جهدا كبيرا ووقتا طويلا،[65] هذا إلى جانب ما ينجرّ عن ذلك من أطماع وجشع يزيد في تغذيّة الصّراع العنيف من أجل الحصول على الأراضي الجيّدة والمياه.[66] وبما أنّ أهل يثرب رغم استقرارهم التّليد مازالت تحكمهم قوانين البداوة، فقد حوّلوا صراعهم الذي من كان من المفترض أن يوجه ضدّ الطّبيعة – من أجل تهيئة الأرض حتى تواكب مساحتها الزّراعيّة تطوّر الأعداد الدّيمغرافية المتزايدة –، إلى تناحر دائم فيما بينهم يأخذ أحيانا طابع الحرب الأهليّة التي تدور رحاها بين الأوس والخزرج مع مشاركة اليهود كلّ حسب ولاءاته، ويأخذ في أحيان أخرى طابع الصّراع العشائري الضّيّق في إطار القبيلة الواحدة،[67] وهو ما يساهم باستمرار في صعود عشائر ونزول أخرى حسب وجاهة زعماء كلّ منها وما تحقّقه من انتصارات على حساب منافسيها.

---

[64]. Djait, *Le parcours*, 67.
[65]. William Montgomery Watt, *Mahomet à Médine* (Paris: Payot, 1959), 184-232.
[66]. Djait, *Le parcours*, 72.
[67]. عمامو، **أصحاب محمد**، 113.

فقد قدم النبي وأصحابه من المهاجرين إلى يثرب بعد أن مضى على معركة بعاث التي دارت بين أهل يثرب خمس سنوات، فوجدوا ''مدينة'' مستقرّة وهادئة في الظّاهر، لكن كان لا بدّ من تسويّة بعض الالتزامات المترتّبة عن الصّراعات السّابقة، ويتعلق الأمر بديّة القتلى السّابقين بعد أن حطت الحرب أوزارها، بينما ظلّ الثأر واردا ما لم تدفع الديّة لذوي القتلى. وهذا ما جعل محمّد يُعطي جواره لأحد الخزرجيّن الذي أراد استقباله عند وصوله إلى قباء مقرّ عمرو بن عوف الأوسيّين بسبب مشكلة الثّأر.[68] ونظرا لكلّ ما سبق ذكره عن واقع يثرب المنذر بالانفجار في أيّة لحظة بسبب قضايا الثأر الموروثة عن الحروب السابقة للهجرة النّبويّة، تبيّن أنّ أكثر القضايا المستعجلة المطروحة أمام الرسول بعد استقراره بيثرب هو العمل على تركيز الأمن فيها وضمان السّلم بين أهلها بمن في ذلک الذين قدموا حديثا إليها وهم المهاجرون.

تحقيق أمن المدينة وإرساء علاقات السّلم بين أهلها

ما يثير الانتباه في ''صحيفة المدينة'' هو جمعها بين ثنائيّة الأمّة المفتوحة والمتكوّنة من المؤمنين ومن تبعهم ولحق بهم، ومجموعات القبائل والبطون تحت قيادة محمّد. ولئن كان كلّ المهاجرين هم من المؤمنين الذين لا يتبعهم ليلتحق بهم بعد الإيمان إلاّ من كان من خارج يثرب، فإنّ البطون القبليّة في يثرب لا يمكن أن يكون كلّ المنتسبين إليها من المؤمنين زمن صدور الجزء الأوّل من الصّحيفة. لذلک فإنّ غير المؤمنين منهم لا ينتمون إلى ''أمّة المؤمنين'' إلاّ بعد إيمانهم، ولكنّ استثناءهم من الأمّة لا يعني عدم خضوعهم لسلطة الرّسول وتنفيذ بنود الصّحيفة فيما يتعلّق بالدّيّة والفدية.

وردت الدّيّة في نصّ الصّحيفة باسم المعاقل، وهو المال الواجب دفعه لأهل القتيل لتجنّب القصاص وهو القتل بالمثل. ويبدو أنّ النّبيّ عندما استقرّ بيثرب وجد الكثير من الدّيّات المؤجّلة الدّفع بسبب ارتفاع قيمتها (مئة من الإبل)، فضلا عن وجود بعض الحالات المستجدّة عند المهاجرين الذين بادروا بممارسة نشاط الغزو في شكل سرايا من أجل تحقيق ما يضمن لهم العيش بصفة مستقلة بعد أن أجبروا على ترک أموالهم في مكة التي هاجروا منها.[69] وكي لا

---

[68]. Djait, *Le parcours*, 74.

[69]. عمامو، **أصحاب محمد**، 181.

تتراكم الدّيّات بسبب ثقل حجمها واختلاط الأمر فيمن يتكفّل بدفعها خاصّة بعد إعلان ’’أمّة المؤمنين،‘‘ ثبّت النّبيّ ما كان معمولا به قبل الإسلام في خصوص دفعها الذي يتكفّل به كلّ فريق على حدة: أوّلهم المهاجرون المؤمنون بدين محمّد، ثمّ المنتمون لكلّ بطن من بطون يثرب سواء كانوا من المؤمنين منهم أو من ظلّوا على دينهم القديم، وبذلك يكون دفع الديّة أمر يشترك فيه كلّ فرد من كلّ بطن من بطون الأوس والخزرج بغضّ النّظر عن دخوله إلى الإسلام من عدمه.

أمّا الفدية وهي المال الذي يُدفع لفك الأسير الذي أطلقت عليه الصّحيفة اسم العاني، فينطبق عليها مثلما ينطبق على الدّيّة، غير أنّ دفعها لا يتكفّل به كلّ المنتمين للبطن، بل كلّ طائفة من طوائف البطن، لأنّ قيمة الفدية على ما يبدو أقلّ بكثير من قيمة الدّيّة ولذلك كان المتكفلون بدفعها أقلّ عددا باعتبارهم طائفة من المتكفّلين بدفع الدّيّة بوصفهم بطنا.

ونتيجة للخلط بين المؤمنين المكوّنين للأمّة وغير المؤمنين الخارجين عن الأمّة والذين يعود إليهم جميعا دفع ديّة القتيل وفدية الأسير، ورد في الصّحيفة عدد مهم من الاستثناءات الخاصّة بالمؤمنين دون غيرهم. وتتمثل هذه الاستثناءات في مساعدة غير المقتدر من بينهم (المثقل بالدّين والكثير العيال) في دفع الديّة والفدية، فضلا على أمرهم بتطبيق عديد البنود حرصا على وحدتهم ومنعتهم وتقوية شوكتهم في محيط لا يبدو ملائما تماما لفرض النّمط الذي يقتضيه إيمانهم بالرّسول محمّد ورسالته:

- منع حلف مؤمن لمولى مؤمن آخر.
- أن يكونوا مجتمعين على كلّ من يظلمهم أو يعتدي عليهم أو يُفسد بينهم حتّى وإن كان ولد أحدهم.
- لا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن.
- أن يكون المؤمنون بعضهم موالي بعض من دون النّاس أي أن يتعاضدوا فيما بينهم ضدّ المخالفين لهم في الدّين.
- من اتّبع المؤمنين من اليهود له النّصر والأسوة.

• لا يُجير مشرك (من أهل يثرب) مالا لقريش ولا نفس، ولا يحول دونه على مؤمن.

تهدف هذه البنود وغيرها[70] إلى التّفريق بين المؤمنين والمشركين داخل كلّ بطن من بطون أهل يثرب، وذلك عن طريق إعطاء المؤمنين منهم الكثير من الامتيازات التي قد تكون حافزا من أجل الالتحاق بالدين الجديد للّذين لم يؤمنوا بعد، في كنف السّلم الذي يسعى الرّسول إلى تحقيقه بإزالة كلّ ما من شأنه أن يحول دون ذلك.

يبدو أن ما وقع إقراره في هذه الصّحيفة فيما يتعلّق بمسؤوليّة البطون القبليّة في دفع ديّة القتيل وفدية الأسير لم يهتمّ إلاّ بتصفيّة تركة الصّراعات الماضية لليثربيّين، ولم يستثن الذين لم يؤمنوا بدين محمّد من المشاركة في فدية أو ديّة أحدهم على أساس الانتماء إلى أحد بطون يثرب. أمّا ما يتعلّق بمستقبل الأمّة النّاشئة فيما له علاقة بالدّيّة والفدية فقد تمّ التّنصيص عليه في بعض آيات السّور القرآنيّة التي نزلت بعد بدر، أي بعد أن أصبح الجهاد بمعنى القتال فرضا دينيّا على أمّة محمّد.[71] فقد ورد في القرآن بخصوص الديّة (القصاص): ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كتِبَ عَلَيْكمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثى بِالْأُنْثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ذلِک تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِک فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ ﴾.[72] وجاء في القرآن فيما يتعلّق بالقصاص أيضا: ﴿الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَالْحُرُماتُ قِصاصٌ فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[73] وجاء كذلك: ﴿وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِک هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.[74] ومثلما ذكر القرآن أحكام القصاص، أورد كذلك أحكاما عن الفدية جاء فيها: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِک وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ

---

[70]. أنظر ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج. 2، 503؛ ابن سلاّم، **كتاب الأموال**، 308.

[71]. عمامو، **أصحاب محمد**، 186.

[72]. سورة البقرة، الآية: 178.

[73]. سورة البقرة، الآية: 194.

[74]. سورة المائدة، الآية: 45.

أَعْمالَهُمْ﴾،[75] وجاء أيضا: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.[76] إنّ أحكام القرآن فيما يتعلّق بالقصاص والديّة والفدية وإن لم تقطع كلّيّا مع أحكام ما قبل الإسلام، فإنّها قابلت بين المؤمنين والكفّار على أساس تطبيق القصاص كما نصّ على ذلك القرآن الذي لم يمنع قبول الصّلح بأخذ الدّيّة، وهو ما لم يقع التّنصيص عليه تماما في الصّحيفة.

ومن الأحكام التي وردت في بنود الصّحيفة أيضا، دعوة اليهود إلى الإنفاق مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإنفاقهم هذا يدخل في إطار كونهم حلفاء لمختلف بطون قبائل العرب اليثربيّة وليس على أساس أنّهم قبائل يهوديّة، ويبدو أنّ أمر إنفاق اليهود على حلفائهم من بطون الأوس والخزرج كان أمرا معمولا به في كلّ الحروب الدّاخليّة التي دارت في يثرب. ولعلّ هذا ما جعل محمّد يطلب منهم المواصلة في فعل نفس الشيء مباشرة بعد معركة بدر التي أدرك من خلالها الرّسول والمقرّبين منه أنّ المهاجرين والمؤمنين من أهل يثرب حتّى وإن كثُر عددهم لم يكونوا قادرين على تجهيز كلّ الذين يريدون الخروج إلى محاربة قريش مثلا، لأنّ الظّروف الماديّة لأغلب المؤمنين كانت غير ملائمة للقيام بمثل هذه العمليّة المكلفة. ويبدو أنّ دعوة اليهود إلى الإنفاق في حروب المؤمنين جاء في سياق تاريخي اتّسم ببداية منعرج في علاقة محمّد مع اليهود، فهو لم يعُدْ يأملُ كثيرا في اعتناقهم للإسلام بعد أن فشل في مجادلتهم كما يدلّ على ذلك ما ورد في المئة آية الأولى من سورة البقرة، لذلك أراد أن يعيدهم إلى التزاماتهم الأولى في فترة ما قبل الهجرة التي كانوا يقومون بها تجاه البطون اليثربية، ولكن بوصفهم مؤمنين في هذه المرّة وليس بوصفهم وثنيّين أو مشركين كما يسمّيهم القرآن، ولكنّ اليهود ارتأوا غير ذلك فقرّر الرّسول بعد معركة أحد التّخلّص منهم تدريجيّا إمّا بالنّفي أو الإبادة ليؤسّس المدينة الحرام لتصبح ثاني الحرمين بعد فتح مكة وأسلمة الحجّ.

هكذا تمكن النّبيّ عن طريق ما أصدره من أحكام في الصّحيفة، من تأمين المناخ الاجتماعي بيثرب، وإيجاد نوع من علاقات السّلم بين مختلف العناصر المكونة للأمّة الجديدة،

---

[75]. سورة محمّد، الآية: 4.

[76]. سورة الحديد، الآية: 15.

وتحقيق التعاضد والتآزر بين البطون القبلية الأصيلة ومن التحق بهم من المؤمنين الطارئين، والعمل على التخلص من أحقاد الماضي، بهدف إذعان الجميع لسلطته السياسية بغضّ النظر عن إيمانهم به وبرسالته من عدمه.

خاتمة

من خلال ما سبق ذكره يمكن القول إنّ ''صحيفة المدينة'' استمدّت أهميّتها من تأسيس سلطة سياسيّة مركزيّة بزعامة النّبيّ، كما أسّست لأمّة المؤمنين على أساس اعتناق الإسلام ولكنّها لم تعزل نفسها عن محيطها والفاعلين فيه، وذلك من أجل استيعاب عناصر جديدة لتوسيع الأمّة النّاشئة من ناحية، ولضمان أمن يثرب وضمان السلم في العلاقات بين أهلها من ناحية ثانية. ولذلك أقرّ النبي ما كان معمولا به فيها قبل قدومه إليها فيما يتعلّق بالدّيّة والفدية والإنفاق على الحرب. ومن هذا المنطلق تُعتبر الصّحيفة ''وثيقة'' سياسيّة قانونيّة سعت إلى إرساء نوع من النّظام الدّاخلي الذي يخضع لسلطة ممركزة حديثة التّأسيس، وقوانين قديمة تمّ إحياؤها لتجنّب الفوضى وكلّ ما من شأنه أن يُربك المناخ الاجتماعي بسبب الإرث الثقيل للحروب الدّاخليّة، وقدوم المهاجرين باعتبارهم عناصر دخيلة قد تزيد من تفاقم الأزمة بسبب قلّة الموارد. وقد جمعت هذه الصّحيفة من خلال المواضيع التي تضمّنتها بين القديم والجديد، لأنّ هدفها يكمن في تصفيّة أحقاد الماضي وتنقيّة المناخ الاجتماعي بسلطة جديدة من خارج يثرب. ولهذه الأسباب نُرجح أنّ إنجاز ''صحيفة المدينة'' جاء لتحقيق غرض مؤقّت يرمي إلى حلّ ما ترسّب من مشاكل الماضي حتّى تسود حياة السّلم بين مختلف مكوّنات المجتمع اليثربي ''الجديد.'' ومن ثم، نعتقد فيما ذهب إليه روبان من إبطال التّعامل بما ورد في الصّحيفة بعد القطيعة التي حدثت بين اليهود والمسلمين – بين 3 و5 هجري على الأرجح — ونسيَ أن يذكرها كبار المؤلّفين المتقدّمين في أعمالهم مثل الواقدي والبلاذري والطبري وغيرهم.[77] أمّا الاهتمام اللاّفت الذي حظيت به هذه الصّحيفة في أوساط العلماء المحْدثين، وخاصّة الغربيّين منهم، فيعود حسب رأينا إلى سببين اثنين: يتعلّق الأول منهما بالفهم المتعدّد نتيجة النّسخ الخاطئ لبعض الحروف أو الكلمات الذي يتغيّر على إثره المعنى بسبب تغيير كلمة

[77]. Rubin, "The constitution,"19.

واحدة مثل ''أمّة واحدة مع المؤمنين'' أو '' أمّة واحدة من المؤمنين،'' أو تعدّد التّأويل في بعض المصطلحات مثل ''المؤمنين'' أو ''..يهود بني...،'' وهذا ما أحدث جدلا واسعا بين الباحثين، وأعطى للصّحيفة أهميّة مبالغ فيها في البحث العلمي. وأمّا السّبب الثّاني فنعتقد أنّه إيديولوجي مرتبط بالسّياق الذي أولاه الباحثون لـ ''صحيفة المدينة،'' والمتمثل في نشأة الحركة الصّهيونيّة، ووعد بلفور، والمحرقة التي تعرّض لها اليهود عن طريق النّازية، ونشأة ''دولة إسرائيل،'' ونكبة 67 والصراع العربي الصّهيوني، كلّ هذا أدّى إلى انجذاب الباحثين للبحث في الصّحيفة من أجل إيجاد ما يبرّر ''تعايش المسلمين واليهود'' على نفس الأرض.

البيبليوغرافيا

Al-Balādurī, ʾAḥmad ʾibn Yaḥyā. *Futūḥ al-Buldān*. Taḥqīq ʿabd ʾAllāh al-Ṭabbāʿ wa ʿUmar ʾAnis al-Ṭabbāʿ. Bayrūt: muʾassasat al-Maʿārif, 1987.

Al-Nuwayrī, Shihāb al-dīn. *Nihāyat al-ʾArab fī funūn al-ʾAdab*. Al-sifr 16. Al-Qāhira: Maṭbaʿat dār al-Kutub al-Miṣriyya, 1955.

Al-Qādī, Widād. "Madkhal ʾilā dirāsat ʿuhūd al-ṣulḥ al-ʾIslāmiyya zaman al-futūḥ." *Majallat al-ʾIjtihād* 1 (1988): 47-113.

Al-Suhaylī, ʾAbū al-Qāsim. *Al-Rawḍ al-ʾUnuf fī sharḥ al-sīra al-nabawiyya li-ʾIbn Hishām*. Taḥqīq wa-taʿlīq wa sharḥ ʿabd al-Raḥmān al-Wakīl. Bayrūt: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyya, 1967.

Al-Ṭabarī, Muḥammad ʾibn Jarīr. *Tārīkh al-Rusul wa-l-Mulūk*. Taqdīm wa-murājaʿat Ṣidqī Jamīl al-ʿaṭṭār. Bayrūt: Dār al-Fikr, 2002.

Al-Wāqidī, Muḥammad ʾibn ʾUmar. *Al-Maghāzī*. Taḥqīq Marsden Jones. London: Oxford University, 1966.

ʿAmāmū, Ḥayāt. "Mufāwaḍāt al-ṣulḥ zaman al-ḥurūb: futūḥ ʾIfrīqyā wa-l-Maghrib namūdhajan." In *al-Mufāwaḍāt bayn Buldān al-Maghrib wa ʾŪrubā al-Mutawassiṭiyya min al-ʿaṣr al-wasīṭ ʾilā al-qarn al-ʿishrīn*. Tūnus: 2022.

ʿAmāmū, Ḥayāt. *ʾAṣḥāb Muḥammad wa dawruhum fī nashʾat al-ʾIslām*. Tūnus: Dār al-Janūb li-nashr, 1996.

Arjomand, Saïd Ami. "The constitution of Medina: a sociolegal interpretation of Muhammad's acts of foundation of the Umma." *International Journal of Middle Eastern Studies* 41 (2009): 555-75.

Bellahcene, Yahia. *La Ṣahīfa de Médine* (*VII^e siècle*) - *Une relecture critique.* Piscataway: Gorgias Press, 2021.

Denny, Frederick M. "Umma in the constitution of Medina." *Journal of Near Eastern Studies* 36 (1977): 39-47.

Djait, Hichem. *La vie de Muhammad: le parcours du prophète à Médine et le triomphe de l'islam.* Tunis: Cérès éditions, 2012.

Djait, Hichem. *Taʾsīs al-gharb al-ʾIslāmī – al-qarn I-II H./VII-VIII J.-C*. Bayrūt: Dār al-Ṭalīʿa, 2004.

Donner, Fred M. "From believers to Muslims: confessional self- identity in the early Islamic community." *Al-Abḥath* 50-51 (2002-2003): 9-53.

Giannakis, Elias. "The concept of Ummah." *Graeco-Arabica* 2 (1983): 99-111.

Gil, Moshe. "The constitution of Medina: A reconsideration." *Israel Oriental Studies* 4 (1974): 44-65.

Goto, Akira. "The constitution of Medina." *Orient (Tokyo)* 18 (1982): 1-17.
Hamidullah, Muhammad. *The first written constitution in the world: an important document of the time of the holy prophet*. Lahore: éd. Muhammad Ashraf, 1968.
Hoyland, Robert. "New documentary texts and the early Islamic state." *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 69 (2006): 395- 416.
ʾIbn Hishām, ʿabd al-Malik. *Al-Sīra al-nabawiyya*. Taḥqīq Muṣṭafā al-Saqqā wa ʾIbrāhīm al-ʾAbyārī wa ʿabd al-Ḥafīẓ Shalabī. Bayrūt: Dār ʾIḥyāʾ al-Turāth al-ʿarabī wa-muʾassasat al-tārīkh al-ʿarabī, 1993.
ʾIbn Kathīr, ʾIsmāʿīl. *Al-Bidāya wa al-nihāya*. Sharḥ wa taʿlīq ʿabd ʾAllāh al-Turkī. Al-Qāhīra: Dār Hajar, 1997.
ʾIbn Salām, ʾAbū ʿUbayd. *Kitāb al-ʾamwāl*. Taḥqīq wa-taʿlīq ʾAbū ʾAnas Sayyid ʾibn Rajab. Al-Qāhira, al-Riyāḍ: Dār al-Hady al-nabawī - Dār al-Faḍīla, 2007.
ʾIbn Sayyid al-Nās, Fatḥ al-dīn. *ʿUyūn al-ʾathar fī funūn al-maghāzī wa al-shamāʾil wa al-siyar*. Bayrūt: Dār al-Jīl, 1974.
ʾIbn Zinjawayh, Ḥamīd. *Kitāb al-ʾamwāl*. Taḥqīq Shākir Dhīb Fayyāḍ. Al-Riyāḍ: Markaz al-Malik Fayṣal li-l-buḥūt wa-dirāsāt al-ʾIslāmiyya, 1986.
Lawrence, Paul Rose. "Muhammad, the Jews and the Constitution of Medina: Retrieving the historical kernel." *Der Islam* 86 (2011): 1-29.
Lecker, Michael. *The constitution of Medina: Muhammad's first legal document*. Princeton: The Darwin Press, 2004.
Montgomery Watt, William. *Mahomet à Médine*. Paris: Payot, 1959.
Rubin, Uri. "The constitution of Medina." *Studia Islamica* 62 (1985): 5-23.
Scholer, Gregor. *Ecrire et transmettre dans les débuts de l'islam*. Paris: Presses Universitaire de France, 2002.
Serjeant, R.B. "The Sunnah Jâmi'ah, Pactswith the Yathrib Jews and the tahrîm of Yathrib: Analysis and the translations of the documents comprised in the so- called constitution of Medina." *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 41 (1978): 1-42.
Serjeant, R.B. "The constitution of Medina." *Islamic Quartely* 8 (1964): 3-78.
Suermann, Harald. "Die Konstitution von Medina Erinnerung an ein anderes Modell des Zusammenlebens." *Collectanea Christiana Orientalia* 2 (2005): 225-44.
Welhausen, Julius. "Muhammads Gemeindeordung von Medina." In *Skizzen und vorarbeiten* 4, 65-83. Berlin: éd. G. Reimer, 1889.
Wensink, Arent Jan. *Muhammad and the Jews of Medina*. Leiden: E. J. Brill, 1908.
Zein al-Abdin, al-Tayib. "The Political Significance of the Constitution of Medina." *Arabian and Islamic Studies* (1983): 146-52.

العنوان: صحيفة المدينة بين الرّواة القدامى والباحثين المحدثين

ملخص: لم تصل صحيفة المدينة، – مثلها مثل كلّ الوثائق الرّسميّة المكتوبة في فترة الإسلام المبكر من مصاحف أو صحف أو رسائل أو عهود صلح أو عقود –، إلى الباحثين المعاصرين بمحملها الأصلي الذي كتبت عليه لأوّل مرّة، بل تمت إعادة إنتاجها في مصادر إخباريّة سرديّة يعود أقدمها إلى النّصف الثاني من القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد. وخلافا لبقيّة الوثائق الرّسميّة، أجمع جلّ الدّارسين على نسبة هذه الصحيفة إلى عهد النّبيّ بعد الهجرة، رغم اختلافهم في التّحديد الدّقيق لزمن صدورها. وعلى الرّغم من إغفال الكثير من المصادر العربيّة الإسلاميّة عن ذكر صحيفة المدينة أو تجاهلها، وخاصّة المصادر التّاريخيّة منها، فقد أولى الدّارسون المعاصرون في مختلف اختصاصات العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة الكثير من الاهتمام

للبحث في هذه الصّحيفة منذ أواخر القرن التّاسع عشر وحتّى زمننا الحاضر. فهل من تفسير لهذا التّفاوت في الاهتمام بصحيفة المدينة بين القدامى والمحدثين؟ وما هو كنه المحتوى الذي تتضمّنه هذه الصّحيفة والزمن الذي كتبت فيه بنودها؟ وهل أنّ هذا المحتوى يعبّر عن إرادة لتصفيّة ما تخلّد من نزاعات الماضي بين مختلف الفاعلين من سكان يثرب، أم فيه ما من شأنه أن يرسم مستقبل هؤلاء الفاعلين في كنف الدّين الجديد؟

الكلمات المفتاحية: صحيفة، يثرب/مدينة، أمّة، يهود، مؤمنون، مسلمون، ديّة، فدية

Titre: Ṣaḥīfat al-Madīna entre les narrateurs traditionnels et les nouveaux chercheurs

Résumé: La “*Ṣaḥīfa*” de Médine, n’a pas bénéficié comme tous les autres documents officiels, écrits pendant la période de l’islam des origines comme le Qurʾān, les lettres ou les traités de paix…, d’être transmis aux chercheurs contemporains avec leurs supports initiaux sur le quel ont écrits pour la première fois. Tous ces documents ont été reproduits dans des chroniques narratives, dont les plus anciennes datent du II^{ème}/VIII^{ème} siècle. Contrairement à tous les autres documents, tous les chercheurs ont convenu d’attribuer la “*Ṣaḥīfa*” de Médine à l’après émigration du prophète vers Yathrib, mais ils ne sont pas arrivés à préciser la date exacte de son émission.

Plusieurs chroniques arabo-islamiques ont omis ou ignoré la “*Ṣaḥīfa*” de Médine, mais les études contemporaines spécialisées en sciences humaines et sociales ont accordé beaucoup d’importance à cette “*Ṣaḥīfa*” depuis la fin du XIX^{ème} siècle et jusqu’à nos jours. Comment explique-t-on cette inégalité pour l’intérêt accordé à la “*Ṣaḥīfa*” entre les anciens et les contemporains? Quelle est la signification de son contenu et la date de l’émission de ses articles? Est-ce que le contenu de ce document vise à dépasser les conflits du passé entre les acteurs parmi les habitants de Yathrib, ou pourrait-il leur servir pour l’avenir au sein de la nouvelle religion?

Mots-clés: *Ṣaḥīfa*, Yathrib/Médine, *Umma*, juifs, croyants, musulmans, rançon.